

محاضرات مقياس الأدب الشعبي العربي

السنة الثانية ماستر

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 06: الأمثال الشعبية في عصر صدر الإسلام وما بعده

1/ توطئة:

الأمثال الشعبية هي مرآة الشعوب ومصفاة القلوب وتبرهن على عقلية الشعب وتعكس اتجاهاته وأخلاقه وتقاليده وحياته الاجتماعية مما لا يمكن أن تجده في أي لون آخر من ألوان الأدب والمعرفة. فهي ديوان الشعوب الذي يحكي سعادتهم وشقاءهم، وفقرهم وغناهم، وشرفهم وخزيهم، وجمالهم وقبحهم، وقوتهم وضعفهم، «فحين كانت اللغة العربية تسود بين الناس سيادة كاملة أو شبه كاملة -أي في عصرها الأول- كانت الأمثال الشعبية كلها تكاد تتبع مع معين واحد وهو الفصحى. وعبر الزمن ظهرت لهجات عامية إلى جانب الفصحى، فكان ثمة أمثال تقال بالفصحى، وأخرى تؤدي بالعامية وعموما فإن المثل الشعبي كالمثل الفصيح ينشأ عن تجارب إنسانية فردية أو اجتماعية عميقة الجذور في شعب معين، فإذا نظرنا إلى الأمثال التي وردت في كتاب مصري ينسب إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي)- أفرد بابا خاصا بالأمثال المصرية، نرى أن بعضها لا تزال تستعمل إلى اليوم، وذلك مثل قوله «إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله» و«المستعجل والبطيء عند المعدية يلتقي» و«إذا غاب عنه أصله كان دلايله فعله» و«الله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير لحمار حبيب» و«حاجة ما تهملك وصى عليها زوج أمك» و«رزق الكلاب على المجانين»¹

¹ ينظر: حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، ص 42-43.

فالمثل حصيلة تجارب الإنسان، ومحصلة خبراته في الحياة وضرب المثل أو قول المثل الغرض منه هو نقل هذه الحصيلة أو الخبرة وما من شك في أن الاستفادة من مغزاه ومضمونه شيء أكيد ومحقق.

2/ في مفهوم المثل:

لقد تطرقنا إلى مفهوم المثل من الناحية اللغوية والاصطلاحية في المحاضرة السابقة والمتعلقة بالمثل الشعبي قبل عصر الإسلام، ولا بأس أن نضيف هنا بعض التعاريف الحديثة لباحثين عرب وغربيين، والتي نراها لا تختلف عن مفهوم المثل إجمالاً سواء كان فصيحاً أم كان شعبياً، أو كان عريقاً أم كان حديثاً، فهذا "أحمد أمين" يتطرق إلى تعريف المثل بقوله «الأمثال نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تتبع من كل طبقات الشعب وليست في ذلك كالشعر أو النثر الفني فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية في الأدب»¹

وهذا "محمد سعيد القشّاط" في كتابه "الأدب الشعبي في ليبيا" يقول عن الأمثال «هي حصيلة تجربة وإيجاز قصة وحديث طويل يورد المثل فيكفي عن الإطالة ويبلغ صاحبه مقصوده دون ملل، وتتخلل الحديث فتزيده إيضاحاً وتقال وحدها فتكفي عن الحديث»²

وهذا الباحث التونسي "محي الدين خريّف" في كتابه "الأمثال الشعبية التونسية" يقول عنها «ويمكننا أن نعرف المثل، بأنه القول السائر الجاري على ألسنة الناس، لتعريف الشيء بما سبقه من أشياء أو حوادث مشابهة، فنقول إن الأمثال أفكار اختلجت في النفوس ومعانٍ تصورت في الأذهان، جاشت بها الصدور، واتصلت بالخواطر ثم أكدتها التجارب، فجرت على ألسنة الفصحاء والبلغاء وسارت عبر الزمان معبرة عن قصة وقعت أو تجربة حدثت أو أسطورة

¹ أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1953، القاهرة، ص 61.

² محمد سعيد القشّاط: الأدب الشعبي في ليبيا، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط2، 1397 هـ 1977م، ص 44.

تروى وخرافة تحكى وهي أسبق من الشعر وأيسر على ألسنة الخاصة والعامة، ولذلك قيل أسير من مثل.¹

أما عند الغربيين فيعرفه فريدريك زايلر في كتابه الأمثال الشعبية الألمانية: «هو القول الجاري على ألسنة الشعب الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة»²

ويعرفه ألكسندر كراب بقوله «يعبر في شكله الأساسي عن حقيقة مألوفة صيغت في أسلوب مختصر حتى يتداوله جمهور واسع من الناس»³

وعرفته دائرة المعارف الفرنسية بقولها «الأمثال أصداء التجربة، والمثل هو اختصار معبر في كلمات قليلة أصبح شعبيا»⁴

من خلال هذه التعاريف السالفة الذكر على الأقل يمكن التوصل إلى جملة من الخصائص والمحددات للمثل الشعبي عند العرب وعند الغرب (أي عند جميع الشعوب) وهي بلاغة المثل أي أنه أرقى تعبيراً وبياناً عن جميع أشكال الأدب المعروفة وبأنه كذلك القول الجاري على ألسنة الشعب أو الناس والذي يتسم بالاختصار والإيجاز في بنيته الشكلية وهو غالباً حصيلة خبرة أو تجربة إنسانية معينة هذا دون أن ننسى طابعه التعليمي والإرشادي.

3/ الأمثال الشعبية في العصر العباسي وما بعده

عرفت الثقافة العربية -منذ أقدم العصور- لغة عامية أدبية يستخدمها العوام في أدبهم في مقابل الفصحى التي هي لغة الخاصة من الأدباء والمتقنين.

¹ محي الدين خريّف: الأمثال الشعبية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط1، 2003م، ص 07.

² فريدريك زايلر، نقلا عن نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 175.

³ ألكسندر هجرتي كراب: علم الفولكلور، ترجمة أحمد رشدي صالح، دار الكتاب العربي، ص 1967م، ص 235.

⁴ طلال حرب: أولية النص: نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، ص 146.

ونحن نجد أن ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد في باب الجوهرة، يورد أمثالا للخاصة ويقابلها بأمثال العامة، وقد اتفقت بعض الأمثال التي أتى بها للعامة مع أمثال مقابلة للخاصة في المعنى، وكان الفارق الوحيد بينهما أن هذا من استخدام العامة وذلك من استعمال الخاصة؛ مثل قول العامة: "الشارف لا يصفر له" وقول الخاصة "زاحم يعود أو دع" وقول العامة: "قيل للشقي هلم إلى السعادة قال حسبي ما أنا فيه" وقول الخاصة: "تجنب روضة وراح يعدو" وقول العامة: "لا تلد الذئبة إلا ذئبا" وقول الخاصة: "شنشنة أعرفها من أخزة" وقول العامة "كلب طواف خير من أسد رابض" وقول الخاصة: "لا يفترس الليث الظبي وهو رابض"

ويقول ابن عبد ربه بعد أن يورد هذا البيت:

وقد يرجى لجرح السيف برء ولا برء لما جرح اللسان

"اجتلبنا هذا البيت لأنه سار مثلا سائرا للعامة"

ومعنى هذا أنه كان هناك نوعان من الأمثال: أمثال تشيع بين العوام، وأمثال تشيع بين الخاصة، ولهذا خصص الميداني جزءا في آخر كل باب من أبواب كتابه "مجمع الأمثال" لأمثال المولدين تمييزا لها عن أمثال الخاصة.¹

ويبدو أن العامة كانوا لا يستخدمون أمثال الخاصة، ولا يتعاملون بها، إلا بما شاع منها وذاع في أحاديثهم وكلامهم اليومي، وكانوا يرددونها دون أن يدركوا معانيها وأغراضها؛ ولذلك عمد "المفضل الضبي بن سلمة الضبي" -بعد سنة 290هـ- إلى جمع أمثال الخاصة التي ترددت على ألسن العامة في حديثهم اليومي على نحو ما يذكر في مقدمة كتابه "الفاخر"؛ حيث يقول: «هذا كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب، وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك، فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره»²

¹ مجدي محمد شمس الدين: فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، الجزء الأول، ط1، 2004م، ص 39-40.

² نفس المرجع، ص 40.

4/ هجرة الأمثال الشعبية العربية وتماثلاتها اللغوية والمعنوية

وقد ينتقل المثل الشعبي إلى شعب آخر مع ما ينتقل إليه من تراث فكري. فهناك أمثال تحض على العمل، وعدم الركون إلى الكسل منتشرة في كافة أنحاء الوطن العربي. ففي مصر المثل «الأيد البطالة نجسة»، وفي الموصل «البطالى ما اطعم خير»، وفي المغرب «يد خاوية وما فيها شيء». وقولهم «كلب داير ولا سبع نايم في الغاب».

وهناك أمثلة تدل على عزة النفس العربي الذي يرى أن عزته في العمل الذي يشرف به ولا يهين نفسه، فهم يقولون «نفسى انهانت ما كانت ولو رموها للكلاب»، فإهانة النفس الموت خير منها. وقولهم «الزرع ان ما غنى ستر»، ويقصدون به أن العامل في الحقل سيجد ما يستره عن إهانة نفسه، ومن ذل السؤال والاحتياج إلى غيره، إن لم يكن الزرع يؤدي إلى الغنى.

ومن تجارب العرب التي صورتها الأمثال، قولهم في مصر «إن كان لك صاحب لا تعامله ولا تتاسبه». وفي الشام يقولون: «صاحبك بدك تبقيه، لا تأخذ منه ولا تعطيه». وفي الجزائر «حبيبك بدك تبقيه، لا تأخذ منه ولا تعطيه». وهذه أمثلة جميلة تعلمنا كيف يبقي صاحب على صاحبه، فلا يسيء العلاقة بين الصديقين إلا المعاملة المادية، وتطور الصداقة إلى صلة النسب.¹

وفي هذا المقام يشير "محي الدين خريف" إلى قضية هجرة الأمثال بين الأمم والشعوب، وتماثل صيغ الأمثال ومعانيها مشيرا إلى بعض الأمثال العربية كدليل على ذلك. قائلا «والمثل الشعبي متنقل جوال، سائر ليس له مكان معين ولا هو ملك لأمة خاصة، واحد في معناه، ولكان لباسه يختلف من أمة لأمة ومن لهجة للهجة، يطول ويقصر في لفظه، ولكن يبقى محافظا على جوهره في التجربة، وذلك لأن التجارب التي ينطلق منها إنسانية، ولا يمكن أن تختلف سواء في الصين أو في مجاهل افريقيا.

فمن الأمثال السائرة التي شرقت وغربت:

¹ حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، ص 43-44.

«أنت حانبة وأنا حانبة، أشكون يشد لجام الدابة» - تونسي

«أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحمير» - أندلسي

«أنا كبير وأنت كبير فمن يسوق الحمير» - مصري¹

¹ محي الدين خريّف: الأمثال الشعبية التونسية، ص 06.